تأثير الثورة الإسلامية في إيران على نساء المنطقة وتوعيتهن

نجوى الدسوقي

كان للمرأة كلام في كل العصور، سواء بالصمت أم بالتحرك. وفي العصور القديمة لم تملك المرأة آلية التحرّك والتغيير، ولم تنصفها بعض الحضارات أو الأديان القديمة، فعاشت مقهورة لا حول لها ولا قوة. وجاء الإسلام وأوقف أنفاس الزمن للحظات، وأعلن عن المرأة الإنسانة التي تستحق الحياة كما يستحقها الرجل، وكانت السيدة خديجة والسيدة فاطمة والسيدة زينب من أوائل النساء اللواتي قمن بادوار توعوية مصيرية كبيرة تهدف الى بناء المجتمع السليم، وهناك الكثير من الأحاديث النبوية عن السيدة خديجة والسيدة فاطمة، وكذلك الأدوار التي قمن بها، مما أعطى صورة مختلفة عن التعاطي والتعامل مع المرأة فيما بعد كونها إمرأة متمكّنة منذ فجر الإسلام، وهناك الكثير من الأمثلة عن نساء أخريات كان لهن دور فعّال في بناء مجتمعاتهن، وكان لكل حقبة إسلامية شأن خاص بالنسبة للمرأة، واختلف الفقهاء في تفسير مشاركة المرأة في المجتمع، فكانت هناك بعض الأفكار والأيديولوجيات التي حدّت من مشاركة المرأة، بينما أعطتها إيديولوجيات وأفكار أخرى، مجالاً واسعاً للمشاركة، ومن بينها كانت تجربة المرأة الإيرانية، وتجربة المرأة اللبنانية، وخاصة المرأة المشاركة في المقاومة بعد ثورة الإمام الخميني(رضوان الله عليه) في إيران، بتأثيرات الثورة الإسلامية وفكر الإمام الخميني.

إلا إن هذه الصحوة بحاجة إلى إستراتيجيات للحفاظ عليها، ولإستمرارية المكتسبات، ونحن نرى أن المرأة التي نهضت بوضعها وطالبت بالوصول إلى حقوقها السياسية والاجتماعية من أجل بناء مجتمع أفضل، عليها أن تعي الخطر الذي لا زال قائما ويهدّد صحوتها من خلال محاولة الغرب الآن، الالتفاف على صحوة الشعوب وعدم تحقيق الأهداف.

ولقد أوصى السيد القائد الإمام الخامنئي، شباب الصحوة الإسلامية بالمحافظة على إنجازات الصحوة التي حققوها بقوله: الصحوة الإسلامية تواجه تحدٍ وهو وضْع إستراتيجيات تربوية وإعلامية لنهضة الأمّة الإسلامية من أجل تحقيق عالمية الإسلام، وتحقيق السيادة الفكرية للشعوب الإسلامية من خلال الإجتماع على ثقافة إسلامية تواجه النظام الثقافي الآحادي الجانب الذي فرضته العولمة، وهيمنت على خصوصيات ثقافات العالم الإسلامي من خلاله.

وفي العصر الحديث، مرّت المرأة المسلمة عبر تجارب عديدة، فكان يُحظر على المرأة في بعض الجماعات، أيّ نشاط خارج منزلها، وكانت تُمنع من حقها في أبسط المسائل في الحياة، والظلم بحقها كان واضحاً مما شجّع الإعلام الغربي على تلقف هذه الصورة التطبيقية وتعميمها كنموذج يُستدل به على ظلم الإسلام للمرأة، وراحت منظّمات حقوق المرأة والحركات (النسوية) ترفع من لهجة خطابها مُناشدة المدافعين عن الحريات بفكّ قيْد المرأة في بلاد المسلمين، وكنّا نرى كيف كان الإعلام الغربي يركّز على وضعية المرأة. وصار الإنسان الغربي يعتقد بأن فلسفة وضع الحجاب على رأس المرأة هي لصمّ آذانها ومنْعها من التواصل مع العالم الخارجي. في هذا كلّه كان هناك فرصة لتجربة أخرى بدأت تظهر للعالم كنموذج مختلف، وهي تجربة المرأة الإيرانية في الثورة الإسلامية التي كانت أول بوادر، ظهور الصحوات في المنطقة، كما وساهمت الدولة بعد انتصار الثورة الإسلامية في تعزيز دور المرأة وإبرازه كنموذج مقابل النموذج الذي يُظهره الغرب، إلا أن هناك تجربة أخرى مهمة لم تأخذ حقّها بعد بالإعلان عنها كنموذج، وهي تجربة المرأة اللبنانية وخاصة المرأة المقاومة، تجربة المرأة المتعدّدة المهام والتي تماهت مع الثورة الإسلامية في إيران، في تنمية المجتمع وكان لها دور فعّال في بناء مجتمع المقاومة الذي يمكن إعتباره صحوة إسلامية إجتماعية داخل مجتمع متنوّع ويميل إلى التغريب أكثر من الأسلمة، كوْن لبنان بلد منفتح على أوروبا والغرب، فأثبتت المرأة المقاومة في لبنان أنها كانت فعلا مثالاً لقول الإمام الخميني (قدس): المرأة كالقرآن كلاهما أُوكل إليه مهمّة صنع الرجال. ولا يمكن لنا أن نتكلم عن الصحوة دون ذكر ما قامت وتقوم به الآن المرأة بمشاركتها إلى جانب الرجل في الصحوة الإسلامية التي يشهدها العالم العربي، وخاصة المرأة في البحرين التي تعاني الإعتقال والتعذيب في السجون في سبيل تحقيق الكرامة والعزة لأمّتها، وكذلك المرأة في فلسطين المحتلة التي تعاني من جبروت الصهاينة في السجون، وتُعاني هي وعائلتها من القتل والتهجير بعد تدمير البيوت، خاصة في القدس التي يحاول الصهاينة تهويدها بالكامل من خلال طرد المقدسيين، إلا أنّ المرأة الفلسطينية تقف في وجه المحتل وتناضل إلى جانب الرجل من أجل الدفاع عن حقها وحق عائلتها، إضافة إلى دفاعها عن المقدسات.

صحوة المرأة في جنوب لبنان

يرى بعض المثقفين بأن لدى المرأة اللبنانية وعياً وثقافة تختلف عن المرأة في سائر دول المنطقة بسبب التعدّد الطائفي الموجود في المجتمع اللبناني فينعكس تعدداً ثقافياً مميزاً.

ولقد خاضت المرأة الجنوبية مع الرجل، معركة البقاء من ناحية الوجود والثبات في الأرض بحكم الجغرافية ووجود فلسطين على الحدود مع لبنان، وكانت أرض واحدة لم يفصل بينها حدود، حتى جاء الإحتلال الصهيوني ،وكان إتفاق سايكس- بيكو الذي قسّم التركِة العثمانية، فكان لبنان من حصّة فرنسا، وفلسطين من حصّة بريطانيا، وفيما بعد سلّمت بريطانيا فلسطين لليهود ليبنوا دولتهم ذات العنوان اليهودي المحض، وليطردوا سكانها الأصليين كما فعل الأوروبيون المهاجرون إلى أميركا الشمالية حيث قتلوا وأبادوا حضارة السكان الأصليين بكاملها وبنوا دولتهم.

تأثر الجنوب اللبناني باحتلال فلسطين، بحكم الجغرافيا والعلاقات التي كانت المتنفس لكلا الجانبين من الناحية الإقتصادية. ولم تتوقف إسرائيل عند احتلال أرض فلسطين فقط، بل تابعت محاولاتها لإحتلالات أخرى لدول مجاورة لفلسطين ومنها لبنان، ناهيك عن الإعتداءات التي كانت شبه يومية على القرى والبلدات الجنوبية، والتي كان يسقط بنتيجتها الكثير من الضحايا. كل ذلك والدولة اللبنانية عاجزة عن حماية المواطنين من الاعتداءات بسبب عجزها العسكري من جهة، وعدم وجود رغبة بتغيير هذا العجز من جهة ثانية، فكان لا بد من حراك ذاتي يقوم به أهل المنطقة الجنوبية حفاظاً على بقائهم إستناداً إلى سُنّة الحياة والرغبة في

البقاء، وأيضاً نتيجة للتربية الحسينية التي تربّوا عليها برفض الظلم والوقوف في وجه الطاغوت، وهذه من مفارقات وجود الأكثرية من سكان الجنوب اللبناني على الحدود من فلسطين المحتلة ممن يحملون الإيديولجية الحسينية. فكانت من أهم المفاعيل التربوية لثورة الإمام الخميني في لبنان، حيث التقف التوّاقون إلى مسار إسلامي صحيح، وإلى نموذج جديد يعيد الأمّة إلى عزّها وإلى ما كانت عليه في بدايات الدعوة المحمدية، وبدأ عاشقو الرسول ورسالته في رحلة جديدة فيها الكثير من الأمل بتحقيق العدل الإلهي، وبايعوا الإمام الخميني وآزروه في ثورته، من خلال المواقف التي هي في عصْرنا الحديث، لها ثقل لا يقل عن المؤازة من خلال حملة عسكرية، كما كان الحال في العصور السابقة، وبالرغم من أن الإسلام لا يحدّه حدود دولة، ولكن التقسيم العالمي لحدود الدول، جعل الناس مُرغمة على استخدام مصطلحات هذا التقسيم، وأن ينتمي كل إنسان إلى مكان جغرافي محدد، فكان هناك الإيراني والأفغاني واللبناني والعراقي والسوري والفلسطيني إلخ .. من التسميات. وتأثير الثورة الإسلامية التربوي طال معظم هذه الدول بما فيها لبنان، ولبنان كان أكثرها تأثرا بسبب طبيعته المنفتحة على الخارج نظراً لوجود ثمانية عشر طائفة، وكل طائفة لها امتداداتها السياسية والإقتصادية والدينية وبالتالي التربوية. وبما أن لبنان فيه نسبة كبيرة من الشيعة، كان التأثّر واضحاً بالنسبة لثورة الإمام الخميني، وخاصة وأن السيد موسى الصدر كان قد أسس قبل الثورة الإيرانية لمجتمع شيعي، وهيّأ له سُبل التحرك بعد أن كان هذا المجتمع يعيش في حالة اضطهاد على مدى قرون. وبدأت المفاعيل التربوية تظهر من خلال تحركات شعبية، كانت المرأة نواته، وخاصة في أيام عاشوراء حيث تكون المشاعر قوية في اتجاه الوقوف ضد الظلم والظالم، كما فعل الإمام الحسين(ع). ثم بعد ذلك، بدأ التأثير يظهر من خلال المؤسسات التعليمية والحوزوية والدروس التثقيفية في المناطق والأحياء، وكانت الناس عطشى لتعلّم أمور دينها مما ساعد على نمو سريع على صعيد الوعي الديني والإجتماعي، ناهيك عن وجود الحوزة العلمية في مدينة قم المقدسة في إيران التي احتلت مرتبة مهمة في تخريج العلماء بعد أن وضع صدام حسين في العراق، الضغوطات على الحوزة العلمية التأريخية في النجف الأشرف في العراق.

وبطبيعة الحال، فإن التطور التربوي الديني الذي شهده لبنان وخاصة الشيعة كان له إنعكاساته على المجتمع ككل. والمرأة اللبنانية الشيعية التي تربّت على ثورة الإمام الحسين لم تجد صعوبة في المماثلة بالتأثر بثورة الإمام الخميني، فقامت بدورها بتربية أطفالها على ما تربت هي عليه.

التجربة الخاصة للمرأة في المقاومة

اعتمدت المقاومة منذ تأسيسها على مشاركة المرأة في مجالات عديدة وشجّعتها على متابعة التحصيل العلمي الذي هو أساس التنمية الإجتماعية، فكانت جنباً إلى جنب مع الرجل، لا بل سبقت الرجل في ميدان العمل الإجتماعي بالإضافة إلى مشاركته في ميادين أخرى، ووصلت إلى أعلى مستوات التعليم ورفدت المجتمع بطبيبات ومحاميات وأستاذات جامعيات وباحثات وإعلاميات، وكانت خير مثال لقول الإمام الخميني(قدس): المرأة نصف المجتمع وتشارك الرجل في النصف الآخر. وبفضل المستوى العلمي والثقافي الذي وصلت إليه المرأة أصبح المجتمع مكتفيا ذاتيا بعد أن كان معتمدا على الآخرين من الطوائف الأخرى التي كانت تملك الإمكانيات والدعم الدولي منذ تأسيس لبنان عام ١٩٢٠، وكان المسلمون الشيعة من أكثر الطوائف حرماناً.